تاريخ استقبال المقال: 13/ 02 /2016 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/08/06 تاريخ نشر المقال: 01 /2017/03

الاستراتيجية الخطابية عند الشيخ البشير الابراهيمي خدمةً للقيم الانسانية

أ.منصف دقاشي جامعة حمه لخضر الوادي – الجزائر

البريد الالكتروني: moncefdegachi@gmail.com

ملخص:

السعي لتحقيق القيم الانسانية على أرض الواقع هدفٌ سامٍ يسعى إليه كلّ مَنْ سمتْ إنسانيته عن تُرابتيه (عرقُه) مهما كانت أيديوليجيته. وهذه القيم تُنشّأ عليها الناشئة، فيشبّوا وقد استوت انسانيتهم وزكت نفوسهم وتسامتْ غاياتهم. والتنشئة تتطلب رجالا خُلّصًا ذوي نوايا صادقة وعزائم قويّة، يتمتعون بكفاءات تأثير عالية في المخاطَبِين (كلّ حسب مقامه ومكانه ومستواه)، كي تصل رسالة القيم التي يحملونها واضحة ويمكّنوها في النفوس كما هي متمكنة في نفوسهم، وهذه هي البراعة والبلاغة. ومن الذين كان لهم شرف الدفاع عن القيم الانسانية، الشيخ البشير الابراهيمي الذي كتَبَ وخطَبَ وراسلَ مستغلا ما وهبه الله من ملكة لغوية وأدبية وسلطة دينية، في تحقيق القيم الانسانية؛ وعلى رأس تلك القيم الحرّية، وهذا المقال يعطي نموذجا من هذا الخطاب في أسلوب النداء الذي اعتمده الابراهيمي مدْخلاً يكاد يكون دائما.

الكلمات المفتاحية: القيم الانسانية، الخطاب الانساني، استراتيجية النداء ، البشير الابراهيمي.

discursive strategy when bachir brahimi - service for human values

Abstract :

the pursuit to realize the human values is a high goal, seeks of it all who had humanity exceeded his race whatever his Ideology was. These values raise the generation, they grow up and their humanity has completed, their souls had grown and their ambitions had foregone. And raising requires men with true intentions and strong wills, with high qualifications impact on audiences (both as substitute and the status and level), to deliver their values' message in clear way and enable them in souls as it is empowered in their souls, and this is the dexterity and eloquence. From the people who had the privilege to defend human values, Sheikh Bashir Ibrahimi who wrote, addressed and sending; exploiting what God's gift from the linguistic and literary qualifications and religious authority, to achieve human values, and on the head of these values, the freedom, and this article gives a sample of this discourse on style of speech adopted by Brahimi which almost being durable.

Keywords: human values, Sheikh Bashir Ibrahimi, human discourse, Strategy call.

مقدمة

كلّ الذين كتبوا عن شخصية الشيخ محمد البشير الابراهيمي يجمعون على مواصفات قلّما تجتمع كلّها في شخص واحد، ولكنّها اجتمعت في شخصه، لخصها تلميذه جميل صليبا بقوله: «بدمشق عهدت وزارة المعارف إلى الشيخ محمد البشير الابراهيمي في التدريس – تدريس اللغة العربية – فأعجبنا سعة علمه وقوّة ذاكرته واستقامة منهجه، لأنّه كان يملي علينا المتنبي والبحتري وأبي تمام عن ظهر القلب من أوّلها إلى آخرها، ويقرّب معانيها من أفهامنا بالتفسير المحكم والشرح الدقيق والتحليل الأدبي الجميل، حتّى ولّد في نفوسنا حبّ اللغة العربية وآدابها .. وكان الذي حبّبه في نفوسنا تواضعه، ولطفه، ووقاره، وشجاعته، وعفّته، وشعوره بكرامته، وحرصه على القيام بواجباته وتعلّقه بالقيم الانسانية المثالية». وتظهر هنا بوضوح معالم شخصية الابراهيمي، وقوّة تأثيره في المخاطبين، ويدلّل هذا على أنّه كان ينتهج استراتيجية خطابية فعّالة حملت لمسة انسانية، ينفذ من خلالها إلى عقول وقلوب مخاطبيه، فما هي هذه الاستراتيجية؟

من كتابات الابراهيمي المنثورة في جريدة البصائر والمتضمنة في آثاره، يمكننا أن نقول أنّ الشيخ اعتمد في خطاباته أساليب عدّة، منها أسلوب النداء، الذي به يقرّب المخاطَب (مستمعا/قارئا)، فيمسك بسلطان قلبه ويجعله مقتنعا بفكرته، فيحدث الأثر العملي في سلوكه. واستعمل الابراهيمي أسلوب النداء لاحتكاكه المباشر بالأسلوب قرآني، وهو الأسلوب الذي يضفي على صاحبه اللمسة الانسانية. فكان يبدأ مقالاته بالألفاظ التالية: إخواني .. أيها الناس .. أيها السادة .. أيها الاخوة .. أنت يا حضرة القارئ .. أي أبنائي .. أيها الاخوان .. أيها السادات الأكارم .. أيها الآباء .. أيتها الأمة الكريمة ... ونادى العمال والطلبة والمثقفين والمرأة ووو...

إضافة إلى العوامل المذكورة سابقا فقد ساعد الابراهيمي في النجاح اعتماده عاملين مؤثرين في استراتيجية الخطاب: المقاصد والسّلطة. ففي المقاصد، كان يحرص على بلورة المعنى مع مراعاة كيفية التعبير عن المقصد، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفّل بنقله مع العناصر السياقية الأخرى. ووظّف السّلطة الروحية التي يتمتع بها في انتاج الخطاب، والتي كانت تمنحه قوّته الانجازية.

تسليطا للضوء على القيم الانسانية التي كان يحملها ويدعو إليها الشيخ البشير الابراهيمي قمنا بدراسة الأسلوب الذي كان يستعمله معتمدًا على عاملي المقاصد والسّلطة من خلال أسلوب النداء، وسمنا مقالنا بـ: الاستراتيجية الخطابية عند الشيخ البشير الابراهيمي خدمة للقيم الانسانية.

الشيخ محمد البشير الابراهيمي:

الخطابة بقدر ماهي ملكة يهبها الله لمن يشاء، هي صنعة يقوم صاحبها بصقلها وطرق يقوم برصفها، بالجد والمثابرة في تحصيل العلم والمعرفة، بالمطالعة الدائمة والقراءة الجادة وحفظ الأسانيد وممارسة مختلف الأساليب، لكسب رهان التميز وتعميق الأثر في النفس والغير.

اكتسب الشيخ محمد البشير الابراهيمي المولود بأولاد ابراهيم سنة 1889، من خلال نشأته في بيت العلم، بين يدي والده وعمّه الشيخ محمدّ المكّي، حيث حَفِظ القرآن الكريم وفهم مفرداته وغريبه وهو في التاسعة من عمره وتعلّم فنون العربية؛ فحفظ ألفية ابن مالك، وألفية ابن معطى، وكثيرا من الأشعار والمتون، حتّى أُجيز بتدريسها وهو في الرابعة عشر من عمره. واستفاد من ذلك في بلورة رؤية واضحة مع الشيخ ابن باديس (1889–1931) في تكوين وتربية النشء على فكرة صحيحة ولو مع قليل من العلم.

قال فيه احمد توفيق المدني: كان الابراهيمي أمّة، كان جيلا، كان عصرا، كان من أولئك الأفذاذ القلائل، الذين أمْلَوْا إرادتهم على الحياة، وأخضعوا الأيام لمشيئتهم فكيّفوها كما أرادوا، وأخرجوا بلادهم من مصير شاءه لها الظالمون، إلى مصير رسموه لها بأنفسهم، فحدّدوا أهدافه، واستبانوا مسالكه، واقتحموا اقتحام الروّاد الصادقين طريقه الوعر المنهك للقوى، غير عابئين بما كانوا يلاقونه من عذاب وتنكيل واضطهاد، ولا معيرين السمع لما كان يحاك حولهم، بوحي من الغاصب الدخيل، من دسّ وبهتان، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين[1]. كان الابراهيمي خلال عشرة اعوام من رئاسة فعلية لجمعية العلماء، يقضي سحابة يومه في البناء والتعمير، ويقضي سواد ليله في التدبير .. فما من مدينة وما من قرية ، وما من مضرب من مضارب البدو، إلاّ غشيها، وبثّ فيها الروح وغرس فيها بذور النهضة، واجتثّ منها الطفيليات القاتلة[2].

وفي عبارات رائعة وصفه يوسف القرضاوي بقوله: «و قد كان الشيخ إذا تحدث يتدفق كأنه البحر الثجاج، و يتألق كأنه السراج الوهاج، وأشهد أنه شدّ الحاضرين جميعا ببيانه الناصع، و خطابه الرائع، وسعة اطلاعه على الأدب والتاريخ، واستشهاده بحكم البلغاء، وروائع الشعراء، ووقائع المؤرّخين».

هذه الشهادات تدلّ على المكانة التي تبوّأها الشيخ الابراهيمي في حياته وبعد رحيله، مقام العالم البحر، والأديب الأريب، والخطيب اللبيب، وما حلّ بهذا المقام إلاّ بتلك الروح التي تحمل قيمًا إنسانية راقية، نابعة من ثقافته الدينية المتجذرة في وجدانه، والتي استطاع من خلالها النفاذ إلى قلوب مخاطَبيه، وقارئي مقالاته، ومتتبعي أعماله وخطْواته.

اعتمد الشيخ الابراهيمي في ايصال هذه القِيَم لمخاطَبيه على استراتيجية توجيهية نابعة من أعماقه، كانت كفاءته التداولية عاملا مهمّا في نجاح العملية التواصلية والتأثير في المخاطَبين. وبالتالي وجد أولا تحديد مفهوم الاستراتيجية الخطابية.

مفهوم الاستراتيجية في الخطاب:

يمكننا الاكتفاء بما عرّفه عبد الرحمن العبيدان حين قال أنّ الاستراتيجية هي طرق محددة لتناول مشكلة ما أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محدّدة والتحكّم بها. وتتعدد الاستراتيجيات بتعدد الظروف. ولأنّ الاستراتيجية خطّة فإنها ذات بعدين؛ أولهما تخطيطي يتحقق في المستوى الذهني، وثانيهما مادي يجسد الاستراتيجية لتتبلور فيه فعلا. ويرتكز العمل في كلا البعدين على الفاعل الرئيس فهو الذي يحقق السياق ويخطط لفعله، ليختار من الامكانات ما يفي بما يريد فعله حقّا، ويضمن له تحقيق أهدافه[3].

فالخطاب، أيّ خطاب هو نتيجة لاستراتيجية معينة. وتوليده يتم على مراحل ثلاثة هي[4]:

1. إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكلّ أبعاده المؤثرة.
2. تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة ليتم اختيار الاستراتيجية.
3. التلفظ بالخطاب.

ولا ينتج المرسل خطابه غفلا من اعتبار السياق، كما لا يتجلّى الخطاب دون استعمال العلامات المناسبة (لغوية أو غير لغوية) ليمارس بها خطابا منظّما في ما يسمّى باستراتيجية الخطاب وهذا يعني أنّ الخطاب المنجز يكون خطابا مخطّطا له بصفة مستمرة وشعورية. من هنا يتحتّم على المرسل اختيار

الاستراتيجية المناسبة التي تستطيع أن تعبّر عن قصده وتحقّق هدفه بأفضل حالة. ويقتضي من المرسل أن يمتلك كفاءة تفوق كفاءته اللغوية ليتمكن بها تحقيق ذلك، ويمكن تسمية هذه الكفاءة بالكفاءة التداولية.

الكفاءة الخطابية التداولية للشيخ الابراهيمي:

تعدّ الملكات التي تميز الانسان في كفاءته عن الآخر مُكوّنا فاعلا ضمن تكوين الانسان السويّ. وننطلق من تعريف "ديك" هذه الملكات من خلال تقسيمها إلى خمس، على النحو الآتي[5]:

الملكة اللغوية: يستطيع مستعملها من خلالها أن ينتج ويؤوّل إنتاجا وتأويلا صحيحين.

الملكة المنطقية: وذلك اشتقاق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي.

الملكة المعرفية: أي رصيد من المعارف المنطقية بإمكانه أن يستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية.

الملكة الادراكية: إدراك المحيط واشتقاق المعارف واستعمالها في انتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

الملكة الاجتماعية: بحيث يعرف كيف يقول ذلك المخاطب معين من موقف تواصلي معيّن، قصد تحقيق أهداف تواصلية معيّنة.

وقد امتلك الامام الابراهيمي هاته الكفاءات جميعها، موهبة من الله، وتأديبا من والده وعمّه وشيوخه، واجتهادا واقبالا على العلم من نفسه، وشهد له بالكفاءة رجال كُثُرٌ، نذكر منهم:

الدكتور بوعلام بالسايح؛ حيث كتب عن الكفاءة التداولية الخطابية للإبراهيمي: «كان يتميّز بعمق التفكير، وبسحر البيان، يخلب النّاس خطيبا، ويأسرهم كاتبا. لقد ملك ناصية اللغة العربية، فكان خبيرا بأسرارها، ضالعا في أساليبها، بارعا في فنونها وآدابها، له عليها سلطة وسلطان، تطاوعه كلّما عالج موضوعا من المواضيع وتنقاد له كلّما اتخذها أداة للمحاججة والجدل. ليست طريقته في الكتابة أسلوبا يحتذى فحسب، إنّما هي مدرسة ونموذج، وشرعة في جزالة اللفظ، ومتانة العبارة، وقوّة الحجّة، فهو الساخر اللاذع إنْ رام أسلوب السخرية والهزل، ولكنّه يعرف، حين يسخر، كيف يحتفظ بطابع اللباقة، الذي يضفي على حكمه وقراره مزيدا من الجدّة والطلاوة، أمّا إذا حاد عن سُبل السياسة، وسلك سبيل الأديب الرفيع، فإنّ له سبك الألفاظ وحبك المعاني مقدرة لا تضاهي، يأتي فيهما بما يسمّيه نقّاد الأسلوب العربي "السهل الممتنع"»[6].

وعبد الرحمن شيبان، الذي خطب الحاضرين في الذكرى الأولى لوفاة الشيخ سنة 1966 قائلا: «لقد كان رحمه الله: إماما في العربية وبلاغتها، تفقّه في أسرارها، وتغذّى بآدابها، واستنار بقرآنها، وكان خطيبا مُصقّعا، يهز القلوب ببيان السحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان، في عهد قسّ بن ساعدة وسحبان، كان محدّثًا بارعا، لطيفا، يغمر مجالسه بالحكمة، ويجمّلها بالنكتة، ويعطّرها بأريج ينعش الأرواح والعقول. وكان ديوانا لأيّام العرب، وآدابهم وتقاليدهم، في أفراحهم وأحزانهم، في حربهم وسلمهم، يروي عن فهم وبصيرة، ويصدر عن حافظة واعية، وذاكرة منجدة، وكان، إلى جانب ذلك، فحْلا في الفصيح والملحون، يذكّرك بالمعرّي في لزومياته، وأبي الطيّب في حِكَمه وأمثاله. أمّا أسلوبه في الكتابة، فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، ممّا جعله، بحقّ، معجزة من معجزات الثقافة العربية الاسلامية، في القرن العشرين»[7].

بهذا ندرك أنّ استراتيجية الخطاب هي نتيجة لصنعة الكفاءة التداولية. وعليه يمكن تعريف استراتيجية الخطاب بأنّها عبارة عن المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده، التي تؤدّي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة ويستحسنه المرسل.

ومن الوسائل التي ساعدت الشيخ الابراهيمي في قدرته الخطابية امتلاكه ناصية اللغة، باعتبارها وسيلة للتفكير، ووسيلة للتعبير والتبليغ، وسيلة للتواصل، وسيلة لحفظ التراث، وهذه وظائف عامة. واستند على وظيفة خاصة بها؛ الوظيفة الافهامية (الندائية)؛ وهي تُعنى بالسامع، وبها تأخذ اللغة شكلها الاتصالي، كما يتضح ذلك في النداء، وفي الأمر وفي التمني.

وللاقتراب أكثر من المخاطَب وَظّف الشيخ الابراهيمي "النداء" باعتباره وسيلة افهام، وانطلاقا من كونه أسلوبا يفيد طلب استدعاء المتكلم للمخاطب للإقبال عليه والتنبيه إلى ما يلقى إليه من الكلام بعد هذا الاستدعاء ، ويتم هذا الاستدعاء بأداة أو حرف من الحروف التي وضعت للنداء

وللنداء جمالية بلاغية تأتي في دلالة سياق العبارات؛ فيه توجيه الأنظار إلى المنادى وتركيز الاهتمام حوله، وفيه ضربا من الإيجاز واختصارا للكثير من الكلام، فضلاً أن فيه تلوينا للكلام والتفاتا بليغا يرغب في استمالة المخاطب ، ويبعث الاطمئنان في نفس السامع.

استثمار الشيخ الابراهيمي المقاصد والسلطة في الخطاب:

المقاصد: يرتكز دور المقاصد، بوجه عام، على بلورة المعنى كما هو عند المرسل، إذ يستلزم منه مراعاة كيفيّة التعبير عن قصده، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفّل بنقله مع مراعاة العناصر السياقيّة الأخرى. وتكمن وظيفة اللغة هنا في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السياق بمجمله، فتتّضح المقاصد بمعرفة عناصره[8].

تكتسي القصدية أهمية بالغة لكون هدف المخاطِب إيصال الفهم إلى المخاطَب، وتعتبر المقاصد لبّ العملية التواصليّة، ووسيلة التواصل هي اللغة المشتركة في مستوياتها المختلفة وخاصة الدلالية إضافة إلى السياق الوارد فيه الخطاب، فلا وجود لأيّ تواصل دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل. وقد فقه الشيخ الابراهيمي هذا الأمر جيّدا فقصد بخطاباته الفئات المختلفة، ولكن بألفاظ وعبارات تناسب كلّ فئة.

السلطة: تلعب السلطة دورا رئيسا في انتاج الخطاب وتأويله، كما أنّها تمنحه قوّته الإنجازية، لذلك، هناك من يرى أنّ الخطاب نفسه سلطة. فإذا كانت السلطة بمفهومها العام هي القوة التي تأمر وتنهى، فتطاع. والسلطة التي يتمتع بها الشيخ الابراهيمي ليست القوّة المادية، وإنّما القوّة النابعة من السلطة الروحية التي يتمتع بها بصفته عالِمًا وإمامًا وأستاذا... سلطة مكّنته من المخاطب، فغدا بين يديه طيّعا رغبًا ورهبًا. وقد تحدّث الشيخ عن سلطة العلماء فقال: «لعلماء الإسلام سلطان على الأرواح، مستمدّ من روحانية الدين الإسلامي وسهولة مدخله إلى النفوس: تخضع له العامة عن طواعية ورغبة، خضوعا فطريًّا لا تكلّف فيه، لشعورها بأنّهم المرجع في بيان الدين، وبأنّهم لسانه المعبّر حقّا عن حقائقه، والمبيّن لشرائعه، وبأنّهم حرّاسه المؤتمنون على بقائه، وبأنّهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوّة»[9].

القِيَم الإنسانية: لدى الشيخ الابراهيمي:

تشكّل القيم الإنسانية في مجموعها مبحثاً مستقلاً من مباحث التفكير الإنساني الفلسفي، وهو مبحث (القيم). ويحيلنا أصل لفظة (قيمة) إلى معنى: القدر، والمنزلة والرتبة العالية[10]، فالقيمة مرادفة للثمن؛ ذلك أن قيمة أي شيء: ثمنه وما يُقدّر به، ويمكن أن نسحب هذه المعالجة على الفعل والسلوك البشريين، فقيمة أي فعل إنساني، هي ثمنه من جهة رضا الآخرين عنه، و انسجامه وتناغمه مع مصدر القيمة، فالشيء القيّم هو مادة عالية الثمن، والفعل أو السلوك القيم هما شيئان مقدّران، ويستحقان كامل الاعتراف بإيجابيتها؛ ومن ثم الرضا عنهما في مجتمع هذا السلوك الإنساني.

القيمة، لفظة واصفة؛ و من ثم فإن دلالتها التواضعية تنشأ اعتماداً على ذلك، و مفهومها يتأتى من كونها "تطلق على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته"[11] وأن الشيء القيّم هو الذي حاز "صفةً تجعل ذلك الشيء مرغوباً فيه ومطلوباً عند شخص من الأشخاص أو طائفة معينة من الناس"[12]، ولا يُفهم من هذا القول: إن القيم مقدَّرة فقط في إطار فئة أو طائفة معينة، بل إن التقدير يطال كل القيم مهما تنوعت وتعددت، مادامت تنتمي لفئة القيم المطلقة التي تحظى بإجماع إنساني يتجاوز الاختلاف العقدي أو القومي أو العرقي، كما أنه إجماع لا يخضع لموجبات مرحلة تاريخية محددة؛ فتُقبل في مرحلة، وتنحسر وتتراجع في أخرى. فهي مطلقة؛ لأنها مستحقة للتقدير بذاتها[13]، وليست إضافية، كما توصف هذه القيم المطلقة بالقيم الأصلية تمييزاً لها عن القيم العرضية[14]؛ لأنها تتسم بالثبات والرسوخ من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تختلف عن القيم الوسيلية التي ترتبط منزلتها بمدى قدرتها على تحقيق غاية ما. فالقيم المطلقة هي كذلك؛ "لأنها غاية في ذاتها وليست لها غاية أخرى"[15].

ويَعتبر الابراهيمي أنّ القيم الانسانية هي تلك التي تقوم على احترام كرامة الانسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه وماله وعقله ونسله، بوصفه إنسانا، وعضوًا في مجتمع. وسنتناول خطاباته لمعرفة مدى قدرته وكفاءته التداولية الخطابية، من خلال القِيَم الانسانية التالية: الحرية، والعلم، والأسرة والروابط الاجتماعية، والأخوّة الانسانية والدينية.

أولا: قِيَم الحريّة

وحول قيمة الحرّية الانسانية كتب الشيخ تحت عنوان "الرق في الاسلام" يستعرض فيه مفهوما واسعا شاملا لمعنى الحرية في القيم الانسانية، انطلاقا من المبادئ الاسلامية، فكتب: إنّ الاسلام هو "دين التحرير العام"، فنرسل هذا الوصف إرسالاً بدون تحفّظ ولا استثناء، لأنّه الحق الذي قامت شواهده وتواترت بيّناته .. التحرر الذي جاء به الاسلام شامل لكلّ ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعاني والأشخاص، والدّين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنّما يفهمه على أنّه كلّ إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو انصاف لضعيف من قويّ، أو نقل شيء من غير نصابه .. حرّر الاسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوّة المميزة للمتضادات والمتنافرات التي بنى عليها هذا العالم، كإصلاح والفساد، والخير والشرّ والنفع والضرّ .. وحرّر الخلطاء بعضهم ببعض بما شرّعه من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكلّ واحد عند حدّه، وحفظ له حقوقه .. وحرّر الاسلام الفقير من الغنيّ، فجعل للفقراء حقّا معلوما في أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أنّ الفقير كان يسأل الغني فجعل للفقراء حقّا معلوما في أموال الأغنياء .. وحرّر الاسلام الحيوان الأعجم من الانسان، وحرّم عليه أن يحمّله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطّشه.. وحرّر الاسلام المرأة من

ظلم الرجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كلّه في منزلة بين الحيوانية والانسانية بل هي إلى الحيوانية أقرب..فجاء الاسلام فنبّه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاها كلّ ما يناسب قوّتها العقلية تركيبها الجسمي وسوّى بينها وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا تشريفا لها، وإبرازا لشخصيتها[16].

وعلاَ صوته فنادى: أيها الاخوان .. أيها الشبان: إنّ الفرار من الظلم والتغرب في سبيل الحرّية طبيعة قديمة في النفوس الكريمة، وما و فرار ولا هي غربة، إنّما هو الحق يفرّ مغلوبا ليكرّ غالبا، ويصدر مطلوبًا ليردّ طالبًا، سنّة الله في الحرّية ص334 .. أيها الشبان! إنّ في تاريخكم لصحائف وضّاءة بحياة المغامرين في طلب الحرية أو في طلب الملك والمجدة والسيادة، فالتمسوها في الجاهلية من امرئ القيس وعروة الرحال، وخذوها في الإسلام من حياة صقر قريش وإدريس بن عبد الله وأبي عبد الله الشيعي، واطلبوا معاني البطولة والتضحية والإيثار من سير أبطالكم تجدوا في كلّ مفخرة إماما.

ثانيا: قِيَم العلم

وجّه نداء لفئة مهمّة في احياء المجتمع؛ الشباب عامة والطلبة العلم خاصة، فنادي:

«أيها الشباب: إنّ الشباب نسب بينكم ورحمٌ وجامعةٌ، ولا مؤثّر في الشباب إلاّ الشباب، فليكن بعضكم لبعض إمامًا، ولْيُعلِّم المهتدون الضُلاّل»[17].

وفي نداء آخر: «العلم .. العلم .. أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب، في المجامع صخاب، ولا يلفتكم عنه معلّل بسراب، ولا حاوٍ بجراب، ولا عاوٍ في خراب، يأتمّ بغراب، ولا يفتنّكم عنه منزوٍ في خنقة، ولا ملتو في زنقة، ولا جالس في ساباط، على بساط، يحاكي فيكم سنّة الله في الأسباط. فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلّاب وساحر كذّاب. إنكم إن أطعتم هؤلاء الغواة، وانصعتم إلى هؤلاء العوّاة، خسرتم أنفسكم، وخسركم وطنكم، وستندمون يوم يجني الزارعون ما حصدوا، ولات ساعة ندم»[18].

وخصّ طلبة العلم في الخارج بخطاب، استهله بنداء مُردف بكلمة "أبناءنا"؛ لفظ رقيق مؤثر في القلوب وخاصة في ديار الغربة حيث الوحشة والغربة، فقال: إنّكم يا أبناءنا فارقتم الأهل، وفيهم الآباء والأمهات، وفارقتم الديار التي خلعتم فيها التمائم، وفارقتم الوطن الذي له على كلّ حرّ كريم دَيْن! وفاؤه الحبّ، وكفاؤه النفع والجميل ... إنّكم يا أبناءنا مناط آمالنا، ومستودع أمانينا، ننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصباح .. يا أبنائي إذا عرفتم واجب أنفسكم التي تحمّلت الأتعاب، وواجب آبائكم الذين غذوا وربّوا، وواجب الوطن المجدب الذي جعلكم رواده إلى القطر، إذا عرفتم هذا كلّه، فماذا أعددتم لهذه الواجبات؟ .. يا أبناءنا، إنّ الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإنّ الثانية منهما تنبني على الأولى قوّة وضعف، وإنتاجا وعقما.. يا أبنائي! إنّ الزمن قد وضعكم وضعًا صيّركم جديرين بأنْ تطلبوا العلم لوجه الله، ولوجه العلم لا للوظائف ولا للشهادات.[19]

إلى صانعي النشأ والشباب، وفي مقال بعنوان: "إلى أبنائنا المعلمين الأحرار"، نادى القائمين على العملية التعليمية، قائلا: أيها الأبناء البررة! ها أنتم تبوّأتم من مدارسكم ميادين الجهاد، فاحرصوا على أن يكون كلّ واحد منكم بطل ميدان .. يا أبنائي .. ها أنتم هؤلاء تربعتم من مدارسكم عروش ممالك؛ رعاياها أبناء الأمّة وأفلاذ أكبادها؛ تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه،

وتسكبون في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، احرصوا كلّ الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، ثم أحرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه ويشاهدونه منكم من الأعمال؛ فإنّ الناشئ الصغير مرهف الحس، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم .. أي أبنائي! إنّ هذا القلب الذي أحمله يحمل من الشفقة عليكم، والرحمة بكم، والاهتمام بشؤونكم، ما تنبتُّ منه الحبال، وتنوء بحمله الجبال، وهو يرثى لحالكم من الغربة وإلحاح الأزمات ويودّ بقطع وتيه لو أُزيحت عللكم، ورفع بالسداد خللكم، ولكنّكم جنود، ومتى طمع الجندي في رفاهية العيش؟ وأسود، ومتى عاش الأسد على التدليل؟ وهو يشعر أنّ التدليل تذليل .. إنّكم – يا أبنائي – رجالُ حركة، فلا تشينوها بالسكون، وأبطال معركة، فلا يكنْ منكم إلى الهوينى ركون[20].

ولفئة أخرى من فئات العلم، التي تصنع المجتمع صناعة، وتمسك بتلابيب قلبه، وتخضع لسلطان مقامه العلمي، فئة العلماء، نادى: "أيها العلماء الخِيَرة، أيها الأبناء البررة: حيّاكم الله وبيّاكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تُعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الأمّة تضمّدون جروحها وتداوون قروحها، وللملّة الحنفية تحمون حماها وترمون من رماها.

ثالثا: قيَم الأسرة والروابط الاجتماعية:

ومن القيم الانسانية التي ركّز الشيخ اهتمامه عليها، وذاد عنها، وأولاها عناية خاصة؛ الجانب الاجتماعي في قضايا الروابط الاجتماعية والأسرة والمرأة والطلاق والصداق. فنادى كلّ من يعنيهم الأمر؛ المسلمون جميع، فقال:

أيها المسلمون: إنّ عقدة الزواج عقدة مؤكدة، يحافظ عليه الأحرار، ويتلاعب بها الفجّار، وإنّ العصمة امتياز لرجالكم، ما لم تطغوا فيه وتظلموا، فإنْ طغيتم فيه وجُرْتم عن القصد، كما هي حالتكم اليوم، انتزعه منكم القضاء الاسلامي العادل لو كان، فإنْ لم يكن عاقبكم الله بعذاب الخزي .. أيها المسلمون: إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وإن أباه يُشقيه أولًا، ويشقى به أخيرًا، فإذا ربيَ في حضن أمّه المطلقة شقي ببعده عن أبيه، وشقي أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارًا، ولا تنتفع بهم كبارًا، إلا إذا نشأوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقّين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد[21].

وفي جانب اجتماعي آخر مهمّ يتعلق ببقاء المجتمع متراصا متّحدًا نادى محذرا قومه في تناص مع القرآن الكريم (يا قومي...)، فقال:

يا قوم: ها هي ذي الانتخابات البلدية على الأبواب، وهي مقدّمة لانتخابات متتابعة وحلقة من سلسلة طويلة من النيابات، وإنّ من طبيعة الانتخابات في الأمم التي لم تنضج آراؤها في الحياة، ولم يتضح منهاج الحياة لها، أنْ تشتّت الشمل المجموع وتفرّق الكتلة المتراصّة الأجزاء، فكيف بالشمل الممزق والرأي المفرّق؟ .. ونادى قادة الأحزاب فقال: يا قادة الأحزاب! إنّ في مبادئكم دسائس دخيلة من الأفكار، تؤرّث العداوة الحزبية بين الاخوة بحجّة المحافظة على المبدإ؛ فانبذوها بضرورة الاتحاد ومراعاة الظروف، وادحضوا شبهتها بحجة الوطن الصريحة .. والتفت في الأخير إلى الأمّة ككلّ بقوله: أيتّها الأمة الجزائرية! إنّ هذه الأحزاب تستمدّ قوّتها منك، وأنتَ الزاد والمدد، والعدّة والعد؛ فاحملها –بجميع الوسائل– على الاتحاد.[22]

و في نداء آخر أطلقه الامام غداة الاستقلال مباشرة، وهو مدرك لمتطلبات المرحلة الجديدة، منبّها لمخاطر الاستعمار المستقبلية، فنادى: «يا معشر الجزائريين، إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم)) :إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك((، فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها».

رابعا: الأخوة الانسانية والدينية (فلسطين نموذجا):

وفي موقف انساني لافت يتصور الشيخ الابراهيمي، قطعة الأرض المسماة "فلسطين" تلك الحبيبة التي ليس بها عُوار، ويبكينها مناديا: يا فلسطين! إذا كان حبّ الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإنّ هوى المسلم لك أنّ فيك أولى القبلتين، وأنّ فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله .. يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محنتك عَبَرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة متردّدة هي: فلسطين قطعة من وطني الاسلامي الكبير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري لك –يا فلسطين– حقّ واجب الأداء[23].

إيه يا فلسطين!! لقد كنتِ مباركة على العرب في حاليك! في ماضيك وحاضرك! كنت في ماضيك مباركة على العرب يوم فتوحك فكمّلوا بك أجزاء جزيرتهم الطبيعية، وجمّلوا بك تاج ملكهم الطريف، وأكملوا بحرمك المقدس حرميهم .. وكنتِ مباركة عليهم في حاضرك المشهود فيما اجتمعت كلمتهم في يوم مثل ما اجتمعت في يوم تقسيمك؛ ولقد فرّقهم الاستعمار الخبيث في عهدهم الأخير، وما تنادوا للاتحاد مثل ما تنادوا إلى الاتحاد في سبيلك.. فلا زلتِ مباركة على العرب يا فلسطين! [24]

خاتمة:

يشكّل العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي في شخصه، مدرسة متميّزة بكلّ ما تحمله كلمة التميّز من معنى، فقد استطاع بعلمه الغزير، ولغته الواضحة، وبيانه وفصاحته، وثقافته الواسعة، أنْ يبني رؤية صحيحة بيّنةٍ، وجيلا متعلّما واعيا، وعلاقات وطيدة واسعة، شكّل من خلالها، أدبًا زاخرا يحمل قِيَمًا إنسانية راقية، بدأت جليّة من الاستراتيجية التي اعتمدها بالاقتراب من كلّ المخاطَبين، موظفا سلطته الروحية، ووضوح مقصديته، غلب عليها أسلوب النداء الذي يضفي على المتكلم لمسة انسانية، سرعان ما يبدو اثرها على متلقيها، فتصل الرسالة، وتغدوا الكلمات التوجيهية أفعالاً إنجازيه.

وقد توضح هذا الأمر فيما عرضناه من نداءات، موجهة لكلّ الشرائح؛ كلٌّ حسب مستواه، واستطاع بذلك أن يبسط في القيم الانسانية أيّما بسطٍ؛ فتناول الحرّية وما تشكّله من ضرورة حياتية، والعلم، وقيم الأسرة والروابط الاجتماعية من زواج وطلاق وعلاقات أخوية، وكذا الأخوة الانسانية والدينية على امتداد جغرافيا الأرض. وبذلك حقّ أنّ يلقّب بفارس البيان والخطيب الفنّان.

الهوامش:

[1] ينظر: أحمد توفيق المدني، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، السنة الخامسة عشرة، العدد 87، 1985، ص39.

[2] ينظر: المرجع السابق، ص44.

[3] ينظر: المرجع السابق، ص52.

[4] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1 ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص63.

[5] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق ، ص57.

[6] بوعلام بالسايح، مجلة الثقافة، المرجع السابق، ص60.

[7] عبد الرحمن شيبان، مجلة الثقافة، المرجع السابق، ص73.

[8] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص180.

[9] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1997، ج3، ص308.

[10] جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء الثاني، 1979، ص212.

[11] جميل صليبيا، المرجع السابق، ص167.

[12] رمضان الصباغ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار المطبوعات الجديدة، الطبعة الأولى، 1988، ص36.

[13] جميل صليبيا، المرجع السابق، ص213.

[14] رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص39.

[15] وليام ليلي، المدخل إلى علم الأخلاق، ترجمة علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص306.

[16] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج4، ص358-360.

[17] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج4، ص270.

[18] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج5، ص316.

[19] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج3، ص201-205.

[20] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج3/ ص262-265

[21] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج3، ص299-300.

[22] ينظر: أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج3، ص301-302

[23] ينظر: محمد البشير الابراهيمي، تصوير الفاجعة، جريدة البصائر، العدد 5، 1947.

[24] ينظر: محمد البشير الابراهيمي، وصف قرار التقسيم، جريدة البصائر، العدد 21، 1948.